

ارتياض العلوم



مشاري بن سعد بن عبد الله الشثري

www.albayan.co.uk


ارتياض العلوم



مشاري بن سعد بن عبد الله الشثري

مجلة البيان، ١٤٣٧هـ

ح فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشثري، مشاري سعد عبدالله

لرتياض العلوم./ مشاري سعد عبدالله الشثري، الرياض، ١٤٣٧هـ

ص ٢٥٨؛ ١٥× ٢٢ سم

ردمك: ٦ - ٠٢ - ٨١٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الإسلام والعلم ٢ - الأخلاق الإسلامية

٣ - الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٩,٧ ١٤٣٧/٣٧٧٢

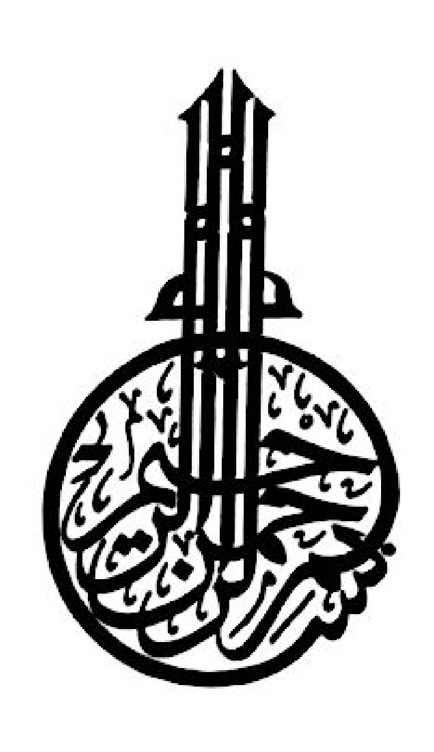
الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٣٧٧٢

ردمك: ٦ - ٠٢ - ٨١٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨




بسم الله الرحمن الرحيم



إهداءٌ

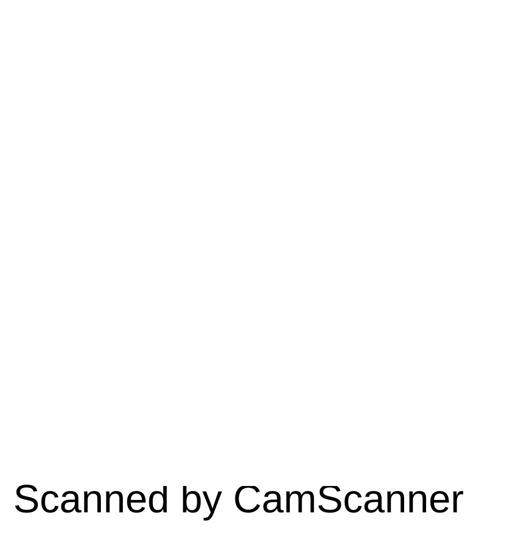
إلى الَّتي ترقُبُ بصمتٍ كلَّ ليلةٍ مصباحَ المكتبة

ترجو سرعةَ انطفائه

فينطفئُ حينًا .. وتسبقُه عيناها أحيانًا

مشفوعًا بوعدِ الحق من الإله الحق

(إنَّما يُوفَّى الصَّابرون أجرَهم بغير حساب)



الفهرس



عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَ صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ المُرَادِيُّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي المَسْجِدِ مُتَّكِئٌ عَلَى بُرْدٍ لَهُ أَحْمَرَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ العِلْمَ، فَقَالَ:

«مَرْحَبًا بِطَالِبِ العِلْمِ .. إِنَّ طَالِبَ العِلْمِ لَتَحُفُّهُ المَلائِكَةُ، وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ».

أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «المُعْجَمِ الكَبِيرِ» (٧٣٤٧).

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبينا محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين .. أمَّا بعدُ:

فلا يفتقرُ كثيرٌ من طلبة العلم إلى برنامجٍ يُنظِّمُ مسيرَهم، أو خطَّةٍ تُدرِّجُ تلقِّيَهم، غيرَ أنَّ الصناعةَ العلميَّةَ ليست متعلقةً بذلك فحسب، بل هي مرتَـهَنَةٌ قبل ذلك بسدادِ بصيرة طالب العلم وارتياضِ ملكاته بالعلوم والمعارف، فإنَّ سدادَ البصيرة وارتياضَ الملكات ذريعةٌ إلى تحقيقِ العلم وحُسنِ التصرُّف فيه .. وحسنُ التصرُّفِ في العلم هو إكسيرُ التحقيق وجوهرُ الصناعة العلميَّة.

ولأنَّ العلمَ بتنوُّعِ أبحاثه وتشعُّبِ مسائله يحتاجُ من طالبه ليرتاضَ به أن يكونَ واعيًا في تحصيله قبل أن يخطوَ بأقدام مشاريعه بعيدًا على غير هدًى من الرأي وبيِّنةٍ من الأمر، فقد توجَّهتُ بسانحِ خاطري وبارحِه إلى تصفُّحِ جملةٍ من علائق الوعي التحصيلي، بعيدًا عن الإغراق في رسوم الخطط ومباني البرامج،

فجاءت فصولُ هذا الكتاب ناظمةً ما هداني إليه التأمُّلُ في هذا الباب، ودلَّتني عليه المطالعةُ، وساعفتني به يدُ المباحثة، مصدَّرةً بالحبِّ، مختومةً بالنَّفعِ، مضمَّنَةً القولَ في متعلَّقات التحصيل العلمي، من النظر في وسائل العلم، وغاياته، وأجناسه، ومدارج تحصيله، بما يمثِّل مجموعةً مقدِّمةً في الوعي، ومبتدأً لـ «ارتياض العلوم» .. كتبتُها مذكِّرًا بها نفسي، مُذاكِرًا بها إخواني من طلبة العلم، رجاءَ الظَّفَرِ بما يحصُلُ به للنَّفسِ ارتياح، وللعقل ارتِيَاض.

ثمَّ إنَّ الحديثَ عن العلم والتحصيل لا بُدَّ وأن يكون متداخلَ الأسبابِ متواشجَ الأنسابِ، فليس من فصول هذا الكتاب فصلٌ إلَّا وقد يدخلُهُ نُتَفٌ من فصولٍ أُخَرَ على قَدرِ ما بينها من سَبَبٍ وانتِسَابٍ، وإنِّي لأرجو أن تعمَّ بذلك جدواه، وينكشفَ مغزاه، ويكونَ القارئُ به أشدَّ انتفاعًا.

هذا، و(قد تلطَّفتُ إلى قلبِكَ بحثِّي إيَّاكَ على حَظِّكَ من فنونٍ من القول، وضروبٍ من الوصايا، وأرجو أن يكونَ صوابي عندكَ فيها متقبَّلًا، وخَطَئي فيها عندكَ مُتَأَوَّلًا، لا لأنِّي أهلٌ لذلك، ولكنْ لأنَّكَ حقيقٌ به، وله خليق)[1] .. واللهُ وحدَه المؤمَّلُ، وهو المستعانُ، وعليه التُّكلانُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا به.

مشاري بن سعد بن عبد الله الشثري

Meshari.s.sh3@hotmail.com

@m_alshathri

(١) اقتباسٌ من مقدمة أبي حيان لـ «البصائر والذخائر» (١ : ٩).

حب العلم

(أَكْثَرُ طُلَّابِ العِلْمِ يَطْلُبُونَهُ مَحَبَّةً)

ابن تيميَّة (٧٢٨هـ)



عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَعْدَدتَ لَهَا؟».

قَالَ: حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ.

قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».

أَخرَجَهُ البُخَارِيُّ (٣٦٨٨) ومُسْلِمٌ (٢٦٩٣) في «صَحِيحَيهِمَا».

(١)

لا شيءَ يَحفِزُ على طلب العلم بعدَ ابتغاءِ مرضاة الله تعالى، وتلمُّحِ ما أعدَّه سبحانه لأهل العلم وطلبته في الآخرة = مثلُ ترويض النفس على حُبِّ العلمِ والرغبةِ فيه، ولا أعونَ على الإقبال عليه من امتلاءِ القلب والْتياعِه شوقًا له، وتحرُّكِ الحواس واضطرابِها من فَرْط الشهوة في طلبه.

وكلُّ حركةٍ في العالم فإنَّما يبعثها الحبُّ، فهو (أصلُ كلِّ حركةٍ في العالم) كما يقرِّرُ ابن تيميَّة (٧٢٨هـ)[١]، ويتلقَّى ذلك عنه تلميذُه وصفيُّه ابنُ القيِّم (٧٥١هـ)، ويبيِّن أن (الحب والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤُه)[٢].

(١) قاله في مواضعَ، منها: الاستقامة (١ : ٤٥٦).

(٢) روضة المحبِّين (٩٣).

ومع أنَّ هذا شأنُ الموجوداتِ كلِّها، إلّا أنّه في العلم أمكنُ وأعمقُ أثرًا، وذلك أنَّ حبَّ الشيء يُحرِّكُ النَّفسَ ضرورةً إلى العلم به، وكلّما ازداد حبُّ المرء للشيء نزعتْ نفسُه إلى مزيدٍ من العلم به، لأنَّ العلمَ هو الذي يسوق إلى المحبوب، وهو الذي يُعبِّد الطريقَ للوصول إليه، أمّا لو خلا القلب عن حب الشيء فلن تقوم بصاحبه الحاجةُ إلى أن يعلمَ أوصافَه وعلاقتَه ولا ما يُدنيه منه، ولن يشتعلَ في وجدانه من الشوق ما يُحرِّكه تجاهه.

وإذا كانت النَّفسُ تُقبِلُ على العلم بما تكرهه لتكون على بَصَرٍ بمفسدته فتسعى بعد ذلك في اتقائه، فإنّها تكون أعظمَ إقبالًا على ما تحبُّه ابتغاءَ مصلحته ولذَّته، لأنَّ انسياقَ النَّفس إلى مصالحها ولذَّاتها أطوَعُ لطبْعها وأسْمَحُ لطلبها.

ثمَّ إنَّ الرغبةَ في العلم ومحبتَه فوقَ كونها حافزةً على طلبه، فإنّها تكادُ تكونُ شرطًا في تحصيلِه والتَّحَقُّقِ به، ولن يبلغَ الطالبُ من العلم حقائقَه وأسرارَه حتى تكون (الكلمةُ الحسناءُ أشرفَ عنده من الجارية العذراء، والمعنى المقوَّمُ أحبَّ إليه من المال المكوَّم)[1].

وأنتَ حين تقلِّب طرفك في كتب السير والتراجم فإنَّك خارجٌ لا محالةَ بشيءٍ يَقرَعُ سمعَك أشبهَ بهاتفٍ ينادي: **إنَّك لن تكونَ عالـمًا حتى يصيرَ العلمُ شهوةً من شهواتك.**

وقد كنتُ كتبتُ ذلك قديمًا وأنا على وَجَلٍ من صدق هذا الهاتف، لأنَّ المرءَ ربَّما كان عالـمًا وهو لا يجد من لذَّة العلم وشهوته إلا النَّزْرَ اليسيرَ،

---

(١) الهوامل والشوامل – أبو حيان (٣٧).

وإنَّما حَسْبُه منه المجاهدةُ والمصابرةُ على لَأوائه في سبيل تحصيل منافعه دون أن يذوقَ ما يغني من عُسيلَتِه، ثم إني رأيتُ ابنَ القيم (٧٥١هـ) يقرِّرُ ما هو أشدُّ من ذلك، وأنَّ المرءَ لن يكونَ عالـمًا حتى تقومَ فيه شهوة العلم، وتكونَ - زيادةً على ذلك - غالبةً على شهواته الأخرى، فـ (من لم تَغلِبْ لذَّةُ إدراكِه للعلم وشهوتُه على لذَّةِ جسمِه وشهوةِ نفسِه = لم يَنَلْ درجةَ العلمِ أبدًا، فإذا صارت شهوتُه في العلم ولذَّتُه في إدراكه رُجِيَ له أن يكون من جُملة أهله)[١].

وقال ابن الجوزي (٥٩٧هـ): (ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشقُ العلم)[٢].

وقال الـمُنَاوي (١٠٣١هـ): (طالبُ العلمِ الـمُتَلذِّذُ بفهمه لا يزالُ يطلبُ ما يزيد الْتِذَاذَهُ، فكلَّما طلبَ ازدادَ لَذَّةً، فهو يطلب نهايةَ اللَّذَّةِ، ولا نهايةَ لها!)[٣].

ولذلك، فإنْ جدَّ بك السيرُ في طلب العلم ولم تَجِدِ للعلم لذَّةً تُلامِسُ شَغَافَ قلبك وغِلافَه فخُذْ بوصيَّةِ الحكيمةِ أمِّ سفيان، فإنَّها لما بعثت ابنَها سفيانَ ليطلب العلم قالت له: (اذهبْ، فاطلبِ العلمَ حتى أعُولَك بمغزلي هذا، فإذا كتبتَ عِدَّةَ عشرةِ أحاديثَ فانظرْ: هل تجدُ في نفسك زيادةً فاتَّبِعْهُ، وإلَّا فلا تَتَعنَّ).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١: ٤٠٠).
(٢) صيد الخاطر (٤٥٦).
(٣) فيض القدير (١: ١٦٣).

فأخذَ سفيانُ بوصيَّة والدته، ووجدَ في نفسه زيادةً فاتَّبعَ، فكان بعد ذلك الثوريَّ (١٦١هـ)(١).

وقال مُجايِلُ الثوريِّ، صاحبُ أبي حنيفة: محمدُ بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ): (عِلمُنا هذا لا يصلح إلَّا بثلاثِ خصالٍ). وذكر منها: (أن يكونَ الرجلُ مشتهيًا له)(٢).

ويعده أبو هلالٍ العسكريُّ (٤٠٠هـ)، فقد نقل عن بعض الأوائل أنه لا يَتِمُّ العلمُ لطالبه إلَّا بستة أمور، وكلَّما نقص نصيبُه منها دخل ذلك بالنَّقصِ على مقداره من العلم، وذكر منها أن تكونَ للطالب (شهوةٌ)، ثم قال أبو هلال: (وذَكَر الشَّهوةَ، لأنَّ النَّفسَ إذا اشتهتِ الشيءَ كانت أسمحَ في طلبه، وأنشطَ لالتماسه، وهي عند الشهوةِ أقبَلُ للمعاني، وإذا كانت كذلك لم تدَّخِرْ من قُواها، ولم تحبسْ من مكنونها شيئًا، وآثرتْ كدَّ النَّظرِ على راحة التَّرك)(٣).

وذكر الماورديُّ (٤٥٠هـ) الشروطَ التي يتوفَّرُ بها علمُ الطالب، وينتهي معها كمالُ الرَّاغب، ويلغ بها تسعًا، وعدَّ منها: (الشهوة التي يدومُ بها الطلب، ولا يُسرِعُ إليه الملل)(٤).

ويُبيِّنُ الجاحظُ (٢٥٥هـ) فارقَ ما بين التحصيلِ الممتزجِ بالرغبة والشهوة والتحصيلِ الخالي منهما، فيقول: (ليس من نَظَرَ في العلم على الرَّغبة والشهوة

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٧: ٢٦٩).
(٢) فضائل أبي حنيفة وأخباره ومناقبه لابن أبي العوَّام (٣٦٠).
(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (٨-٩).
(٤) أدب الدين والدنيا (١١٦).

له كمن نظر فيه على المكسبةِ به والمربِ إليه، لأن النَّفسَ لا تُسمِح بكُلِّ قواها إلّا مع النَّشاطِ والشَّهوةِ، وهي في ذلك لنفسها مستكرِهَةٌ، ولها مكابِدةٌ)[1].

وكما أنَّ حبَّ العلم شرطُ تحصيله، فكذلك حبُّ متعلَّقاته ووسائله، ومنها حبُّ كتبه، والتَّهالكُ على اقتنائها، وعن ذلك يقول الجاحظ (٢٥٥هـ): (من لم تكن نفقتُه التي تَخرُجُ في الكتب ألذَّ عنده من إنفاق عشَّاقِ القيان والمستهترين بالبنيان = لم يبلُغْ في العلم مبلغًا رَضِيًّا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يُؤْثِرَ اتِّخاذَ الكتب إيثارَ الأعرابي فرسَه باللَّبن على عياله، وحتَّى يؤمِّلَ في العلم ما يؤمِّل الأعرابيُّ في فرسه)[2].

وهذا الحبُّ هو ما حَدَا بمحمد كرد علي (١٣٧٢هـ) إلى أن يقول: (لقد أنفقتُ في سبيل التعلُّمِ أوَّلًا، ثم التعليمِ ثانيًا، ثم نَشْرِ ما علمتُ ثالثًا نفقاتٍ لم ينفقها فيما أحسب إنسانٌ ممن عرفت من أبناء وطني)[3].

فحُبُّ العلم متى ما كان صادقًا فإنَّه يسوق ضرورةً إلى حبِّ متعلَّقاتِه ووسائلِه وكلِّ ما يتَّصل به بسببٍ من الأسباب، ولذلك قال ابنُ تيميَّةَ (٧٢٨هـ) في تقعيد ذلك مبيِّنًا أن حبَّ الشيء يوسِّع من دائرة السعي لتشملَ الشيءَ ومقدماتِه: (النَّفسُ إذا أحبَّت شيئًا سَعَت في حصوله بما يمكن، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلُّها مقدماتٍ لتلك الغاية)[4].

---

(١) رسائل الجاحظ (١: ٢٩٦).

(٢) الحيوان (١: ٥٥).

(٣) المذكرات (١: ٣١٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠: ١٣٣).

كَمْ في طلب العلم من أنَاتٍ وأوجاعٍ، ولكنَّها عند المحبِّينَ أنَاتٌ معسولةٌ وأوجاعٌ معشوقةٌ، يجدون لحرارة طلبه حلاوةً، ولمشقَّةِ نواله بَرْدًا، فعشَّاقُ العلم مع ما يعالجونه من مشقَّة التحصيل إلَّا أنَّهم أعظمُ شغفًا وعشقًا له من كلِّ عاشقٍ بمعشوقه، (وكثيرٌ منهم لا يشغله عنه أجملُ صورة من البشر)[1].

وإذا ما جدَّ المرء في تحصيل المطالب العالية وترقَّى في طلب كمالاتها فلا بُدَّ وأن يسوقَه ذلك إلى العلم، فهو جوهرُ المطالب وغايتُها.

قال ابن الجوزي (٥٩٧هـ): (ألا ترى أنَّ الصبيانَ يحبُّونَ التَّماثيلَ واللُّعَبَ أكثرَ من محبتهم للناس، لضعفِ نفوسهم وكونِها مماثلةً للصور لخلوها عن رياضة، فإذا ارتاضتْ نفوسُهم ارتفعتْ همَمُهم إلى ما هو أعلى، وهو حبُّ الصور الناطقة، فإذا ارتاضت نفوسهم بالعلوم والمعارف ارتفعت عن حبِّ الذَّواتِ ذواتِ اللَّحمِ والدَّمِ إلى ما هو أشرفُ منها. وأتمُّ أحوال النَّفس الشهوانية وجودُها مع شهواتها من غير منغِّصٍ، وأتمُّ أحوال النَّفس الحيوانية وجودُ غرضها من القهر والرياسة، وأتمُّ أحوال النفس الناطقة وجودُها مدركةً لحقائق الأشياء بالعلم والمعرفة، وهذه النفس لا يستأسرها الهوى، فإنْ أمالها طبعُها أقامَها فكرُها، وانتاشَهَا من يده عقلُها وفهمُها، لأنها تتفكَّرُ فيما قد نابها، فتتلمَّحُ منتهاه وترى غايتَه، وليس من شأنها الوقوف لأنها في السَّيْرِ أبدًا تترقَّى من عِلْمٍ إلى عِلْمٍ)[2].

---

(١) روضة المحبين لابن القيم (١٠٨).

(٢) ذم الهوى (٢٣٥-٢٣٦).

ويبلغ العلم من وجدان ابن القيم (٧٥١هـ) مبلغًا عليًا، ويعرُجُ به من منزلةٍ لأخرى حتى أطلقَ قلمَه ليكتبَ بأنه (لو ظهرتْ صورةُ العلم للأبصار لزادَ حُسنُها على صورة الشمس والقمر)[1].

وانظرْ مصداق ذلك عند العلّامة اللُّغوي الكبير محمد محمود بن التلاميد التُّركزي الشنقيطي (١٣٢٢هـ)، أحد أعلام القرن الرابع عشر، فقد طرقت شهرتُه أسماعَ ملوك أوروبا، ففي إطار التحضير لعقد المؤتمر الثامن للعلوم الشرقية طلب أوسكار الثاني (١٣٢٥هـ) ملك السويد والنرويج من السلطان عبدالحميد (١٣٣٦هـ) أن يبعث إليه بوفد من أبناء العرب يسألهم عن القرآن واللُّغة وأشعار العرب، وأن يكون الوفد برئاسة ابن التلاميد، فبلغ الخبرُ ابنَ التلاميد، وتشجَّع لذلك، وكتب قصيدة تخطَّت حاجزَ المتنبي بيتٍ ليصدع بها في قلب «ستوكهولم»، غير أنَّ خلافًا بينه وبين السلطان عبدالحميد حال بينه وبين ذلك، وكانَ مما جاء في قصيدته - التي ضمَّنها مجموعَه المسمَّى «الحماسة السَّنيَّة الكاملة المزيَّة في الرحلة التركزيَّة» - تلك الأبياتُ التي بيَّن فيها كيف أنه ما زال بالعلم، طالبًا له، راحلًا في جمعه، حتى طغتْ لذَّةُ العلم على سائر لذَّاته، بل أحالتْها سمومًا مهلكةً! فقال:

ولـمَّا طَعِمْتُ لـذَّةَ العلمِ صيَّرتْ
سواها من اللَّذَّاتِ عنديَ كالسُّمِّ
ولـمَّا عَشِقتُ العلمَ عشقَ درايةٍ
سلوتُ عن الأوطانِ والأهلِ والحِلْمِ

(١) مفتاح دار السعادة (١: ٣٢٢).

ولـمَّا عَلِمْتُ ما عَلِمْتُ بغربنا
ترحَّلتُ نحوَ الشَّرقِ بالحزمِ والعزمِ
ولم يثْنِ عزمي نهيُ حسناءَ غادةٍ
شبيهةُ جُمْـلٍ بل بُثَيْنَةَ بل نُعْمِ
ولم يُغْمِ قلبي حبُّ عـذراءَ كاعبٍ
وحبُّ العذارى قد يُصِمُّ وقد يُعمِي
رحلتُ لجمعِ العلمِ والكُتْبِ ذاهبًا
إلى الله أبغي بسطةَ العلمِ في جسمي
وأمعنتُ في إدراك ما رُمـتُ نيلَهُ
فأدركتُ ما أدركتُ بالصَّبرِ والحزمِ
وصرتُ بما أدركتُ من ذَينِ هاديًا
بشمسٍ على شمسٍ ونجمٍ على نجمِ[1]

وتبلُغُ الحالُ بطلاب العلم أنْ يستحيل العلمُ جزءًا لا يتجزأ من حواسِّهم بعد أن كانوا يطلبونه بها، واستمعْ إلى ابن وهب (١٩٧هـ) وهو يقول: (ما مَلِلتُ العلمَ قط، وما نبتَ لحمي إلّا من الكتاب)[2]. وهكذا الحال حين تكونُ أنتَ والعلمُ روحًا في جسدين.

(١) الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية (٩).
(٢) أخبار ابن وهب وفضائله لابن بشكوال (١٢٢).

ثم إذا كان الطالبُ المحبُّ متيِّجًا للعلم باثًّا له صار ما كان منه من قولٍ أو فكرٍ أحبَّ إليه من جميع ما ملكه وحصَّله من نِعَم الدنيا وملذَّاتها.

يقول الجاحظ (٢٥٥هـ): (واعلم أنَّ العاقلَ إن لم يكن بالمتتبِّع فكثيرًا ما يعتريه من ولده أن يحسُنَ في عينه منه المقبَّحُ في عين غيره، فليعلَمْ أنَّ لفظَه أقربُ نسبًا منه من ابنه، وحركتَه أمسُّ به رَحِمًا من ولده، لأنَّ حركتَه شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فَصَلت، ومن نفسِه كانت، وإنَّما الولد كالـمَخْطَةِ يتمخَّطُها، والنُّخَامة يقذِفُها، ولا سَوَاءٌ إخراجُكَ من جزئِكَ شيئًا لم يكن منك، وإظهارُكَ حركةً لم تكن حتَّى كانت منك، ولذلك تجِدُ فتنةَ الرجل بشِعْرِه وفتنتَه بكلامِه وكتبِه فوقَ فتنته بجميع نعمته)[١].

(٣)

(حبِّبْ إلى نفسك العلمَ حتى تلزمَه وتألفَه، ويكون هو لهوَك ولذَّتَك وسلوتَك وبُلغتَك)[٢].

اجعلْ طلبك للعلم تفاعلًا بينك وبينه، بينك وبين أهله، بينك وبين طلابه .. لا تقتصر في تحصيله على وسيلة واحدة، بل ازدَدْ من وسائله وذرائعه دون مَلَلٍ ولا كَلَلٍ.

اقرأْ، وتأمَّلْ، واحفظْ، واكتبْ، ولخِّصْ، واشرحْ، وحاوِرْ، وناظِرْ،

(١) الحيوان (١ : ٨٩).
(٢) الأدب الكبير لابن المقفع (١١١).

وابحثْ، واستشكِلْ، وانتقِدْ، وما شئتَ وراءَ ذلك، فإن ذلك كلَّه مما يُذْكي نارَ حبِّك للعلم، ويجعلُ بينكما علاقة حميمية لا تملك معها أن تفارقه، فلا تغادرُ وسيلةً إلَّا التقيتَ بأخرى، وما تخرجُ عن سبيلٍ إلَّا دخلتَ في آخر.

- لِتكُنْ حياتُك العلميَّةُ حافلةً بالمنجَزَاتِ الواصلةِ بينك وبين مسائل العلم، بذلك يدومُ الحبُّ، وتعظمُ المودَّةُ، وتُنالُ اللَّذةُ، (وكفى بلذَّة العلم والفقه والفهم داعيًا وباعثًا للعاقل)(١).

اجعلْ طلبَك للعلم روحًا ساريةً في محيطِك، مجالسِك، أقرانِك .. كنْ بالعلم، منه وإليه .. إذا وردتَ مجلسًا فليكنْ لسانُك بالعلم ناطقًا، بُثَّ في من حولك بهجةَ العلم وأذِقْهُم لذَّته، واسْعَ قدرَ طاقتك للتخفُّفِ من العلاقاتِ الطَّاردةِ لحديث العلم المجافيةِ لمسائله، وخذْ بوصية الإمام أبي حنيفة (١٥٠هـ) التي جلَّل بها تلميذَه أبا يوسف (١٨٢هـ)، فقد أوصاه بوصيةٍ دافعةٍ رافعةٍ، ضابطةٍ لعلاقته بالناس، فقال له: (لا تُكثِرْ معاشرتَهم إلَّا بعد أن يعاشروك، وقابلْ معاشرتهم بذكر المسائل، حتى إنَّ مَن كان مِن أهله اشتغل بالعلم، ومن لم يكن من أهله يجتنبُك، ولا يجدُ عليك، بل لا يحومُ حولك)(٢). ما أندى كلام الأئمة، وما أجملَ وصاياهم!

فأوصاه أولًا بدفع العلائق بعدم مباشرة عقدها، وثانيًا برفعها بعد أن يباشره الناس بها، وذلك بجعلِه العلمَ هو المتولِّيَ لطَرَفي العقد، فإن لم يجدِ العلمُ أحدَ الطرفين محلًا قابلًا ألغاه، وبسقوط ركنٍ ينحَلُّ العَقدُ كلُّه.

(١) تعليم المتعلم للزرنوجي (٨٠).
(٢) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي (٢: ١١٤).

ويتلقَّى المزني (٢٦٤هـ) عن الشافعي (٢٠٤هـ) نحوًا من هذه الوصيَّة، فينقل عنه قولَه: (من لا يُحبُّ العلمَ فلا خيرَ فيه، ولا يكنْ بينك وبينه معرفةٌ ولا صداقةٌ)[1].

قال ابن جماعة (٧٣٣هـ): (الذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالطَ إلَّا من يفيده أو يستفيد منه ... فإن شَرَعَ أو تعرَّض لصحبةِ مَن يَضيعُ عمرُه معه، ولا يُفيدُهُ، ولا يستفيدُ منه، ولا يُعينُهُ على ما هو بصدده = فليتلطَّفْ في قطع عِشرَته في أوَّل الأمر قبل تمكُّنِها، فإنَّ الأمورَ إذا تمكَّنت عسُرَت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء: «الدَّفع أسهلُ من الرَّفع»)[2].

بهذه الروحِ الرساليَّةِ يتنامى حبُّ العلم في قلبك، ويزداد شغفك بتحصيله، فتكون معرَّفًا به منتمِيًا إليه بعد أن كنتَ طارئًا عليه مداريًا له.

(٤)

قال الشافعي: (جعلتُ لذَّتي في هذا العلمِ وطلبِهِ حتى رزقني الله منه ما رزق)[3].

ولـمَّا سأله تلميذه الربيع بن سليمان (٢٧٠هـ): كيف شهوتُك للأدب؟

قال: (أسمع بالحرفِ منه مما لم أسمعه، فتوَدُّ أعضائي أنَّ لها أسماعًا تتنعَّم به مثل ما تنعَّمت الآذان).

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢: ١٤٤).
(٢) تذكرة السامع والمتكلم (٩٤).
(٣) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (٢٢).

فقال له: وكيف حرصُك عليه؟

قال: (حِرصُ الجَمُوعِ الـمَنُوعِ على بُلُوغ لذَّته في المال).

فقال: وكيف طلبُك له؟

قال: (طلبُ المرأةِ المضلَّةِ ولدَها وليس لها غيرُه)[1].

لمثل هذا الحبِّ وهذا التلذُّذِ بالعلم والأدب كان الشافعيُّ الشافعيَّ!

وكان يُؤتَى بالرُّطَب فيُوضَعُ بين يدي أبي بكر ابن الأنباري (٣٢٨هـ) فلا يمسُّه، ويقول: (ما أطيبَك! وما أحلاك! ولَلعِلمُ أطيبُ منك وأحلى)[2].

ولـمَّا تغشَّى ابنَ تيميَّة (٧٢٨هـ) مرضٌ جَرَتْ بينه وبين الطبيبِ المباشرِ لعلاجه هذه المحاورة:

قال الطبيب: إنَّ مطالعتَك وكلامَك في العلم يزيد المرض.

فقال الشيخ: (لا أصبرُ عن ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك .. أليستِ النفسُ إذا فَرِحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعتِ المرض؟)

فقال الطبيب: بلى.

فقال له الشيخ: (فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد راحةً، وإذا اشتغلت نفسي بالكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فَرِحَت به وقَوِيَت فأوجب ذلك دفع العارض).

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢: ١٤٣-١٤٤). والذي في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١: ٢٢): (قال أبو عمرو بن العلاء: قيل لمنذر بن واصل: كيف شهوتك للأدب ...).

(٢) الحث على طلب العلم للعسكري (٢٢-٢٣).

فقال له الطبيب: هذا خارجٌ عن علاجنا![1]

وَصَدَق ..

لا يَعرِفُ الشَّوقَ إلا مَن يُكابِدُه
ولا الصَّبَابَةَ إلَّا مَن يُعَانِيها

وقد ذكر ابنُ جماعةَ (٧٣٣هـ) أن (بعضهم لا يترك الاشتغال بعُرُوضِ مَرَضٍ خفيفٍ، أو أَلَمٍ لطيفٍ، بل كان يستشفي بالعلم، ويشتغل قدر الإمكان، كما قيل:

إذا مَرِضنا تداوينا بذِكرِكُمُ
ونتركُ الذِّكرَ أحيانًا فننتكسُ)[2].

فـ (لا فرقَ بين من أعدمَكَ الدواءَ الذي تستشفي به من دائك، وتستبقي به حُشاشةَ نفسك، وبين مَن أعدمك العلمَ بأنَّ فيه شفاءً، وأنَّ لك فيه استبقاءً)[3].

ولـمَّا عدَّ الذهبيُّ (٧٤٨هـ) لذائذَ ابنِ تيميَّةَ (٧٢٨هـ) حَصَرها في العلم، فقال: (كان إمامًا متبحِّرًا في علوم الديانة، صحيحَ الذهن، سريعَ الإدراك، سيَّالَ الفهم، كثيرَ المحاسن، موصوفًا بالشجاعة والكرم، فارغًا من شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذَّةَ له في غير نشرِ العلم وتدوينِه

(١) أورد هذه المحاورة ابن القيم في: مفتاح دار السعادة (٢: ٧١٢)، روضة المحبين (١٠٩).
(٢) تذكرة السامع والمتكلم (٥٧).
(٣) دلائل الإعجاز للجرجاني (٩).

والعملِ بمقتضاه)[1]. ولا غرابةَ، فهو القائل: (لا ريبَ أنَّ لَذَّةَ العلم أعظمُ اللَّذات)[2].

كما قال عنه الصفديُّ (٧٦٤هـ): (كان من صغره حريصًا على الطَّلَب، مُجِدًّا على التحصيل والدَّأب، لا يُؤثرُ على الاشتغال لذَّة، ولا يرى أن تضيع منه لحظةٌ في البطالة فلَّة، يَذْهَلُ عن نفسِه، ويغيبُ في لذَّة العلم عن حِسِّه، ولا يطلبُ أكلًا إلَّا إذا أُحضِر لديه، ولا يرتاح إلى طعامٍ ولا شرابٍ في أَبْرَدَيه)[3].

وكما كانَ ابنُ تيمية (٧٢٨هـ) كانَ تلميذُه ابن القيم (٧٥١هـ)، يشهدُ على ذلك حالُه ومقالُه:

أمَّا حاله فقد حكى عنه تلميذُه ابنُ رجبٍ (٧٩٥هـ) أنَّه (كان شديدَ المحبَّة للعلم، وكتابته، ومطالعته، وتصنيفه، واقتناء الكتب)[4].

وأمَّا مقاله، فهو القائلُ بأنَّ (العالم يبلُغ في العلم بحسب عشقه له)[5]، والمقرِّرُ بأنَّ (من ذاق لَذَّةَ شيء قَوِيت همته في تحصيله)[6].

وإذا استحضر الطالب وعورة العلم ومشقة طلبه لم يجد مركبًا يبلغ به نهايات غايته إلَّا مركبَ المحبة، فالعلمُ بعيدُ المسلك، غائرُ المطلب، ومتى

---

(١) المعجم المختص (٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤: ١٦٢).

(٣) أعيان العصر وأعوان النصر (١: ٢٣٦).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٥: ١٧٤).

(٥) روضة المحبين (٢٦٥).

(٦) عدة الصابرين (١٠٦).

ما عريَ طالبه عن محبته انصرف عنه، ومتى ما تمكَّنتْ من قلبه محبَّتُه أقبل عليه أبدًا وزاد إليه اشتياقه، ومن ظفر من الطلاب بهذا الاشتياق كان أحرى بملازمة العلم والمصابرة على تحصيله مهما توعَّرَت سُبُله (على عادة المشتاق، فإنه يسلك السبيل إلى الظفر بمحبوبه كيف كانت، غيرَ مفكِّرٍ في الوعورة والبعد)[1].

وأخيرًا، فما أجلَّ ما قاله الطَّناحيُّ (١٤١٩هـ) وأصدقَهُ: (إذا دخلَ العلمُ من باب الحبِّ فليسَ مِن وراء ذلك شيءٌ)[2].

*****

روى البخاري (٢٥٦هـ) في صحيحه [٢٣٤٨] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ كان يومًا يُحدِّثُ «أنَّ رجُلًا من أهل الجنة استأذن ربَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألسْتَ فيما شئتَ؟ قال: بلى، ولكنِّي أحبُّ أن أزرع. قال: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نباتُه واستواؤُه واستحصادُه، فكان أمثالَ الجبال، فيقول الله: دُونَكَ يا ابنَ آدمَ، فإنَّه لا يُشبِعُكَ شيءٌ».

قال ابن حجر (٨٥٢هـ): (في هذا الحديث من الفوائد أنَّ كلَّ ما اشتُهِيَ في الجنَّة من أمور الدنيا ممكنٌ فيها. قاله المهلَّبُ)[3].

---

(١) الهوامل والشوامل – مسكويه (٦٠).
(٢) الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم (٨٦ – هامش «١»).
(٣) فتح الباري لابن حجر (٥: ٢٧).

فاللَّهُمَّ وقد حبَّبتَ إلينا العلمَ في الدنيا، وزيَّنتَه في قلوبنا، فمتِّعنا بمَجَالِسِه في الجنَّة، وارزقنا مذاكرتَه مَعَ الَّذينَ أنعَمْتَ عليهم من النبيِّينَ والصدِّيقينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالحينَ، وحَسُنَ أولئك رفيقا.